المحاضرة الثامنة: أطروحة المجتمع الشبكي لهانويل كاسترز ودارين بارني.

تأتي أطروحة المجتمع الشبكي كأحد المحاولات الحديثة والرامية إلى فهم وتوصيف مجموعةٍ من القوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المترابطة، ونستطيع القول أنها قراءة أو طرح قائم على دراسة النظريات أو الأطاريح التي سبقتها مثل : أطروحة مجتمع المعلومات، أو مجتمع ما بعد الصناعي، أو العولمة، لذلك فإن فكرة المجتمع الشبكي تضيف شيئًا خاصًا ومميزًا إلى هذا الحوار الفكري والعلمي.

يقول دارن بارني (Barney Darin) في كتابه (المجتمع الشبكي The Network Society):

تنطبق عبارة "المجتمع الشبكي " على المجتمعات التي تظهر فيها خصيصتان أساسيتان : **الخصيصة الأولى** تتمثل في أن هذه المجتمعات توجد فيها تقانة معقدة (رقمية على وجه التحديد) من الاتصال وإدارة/ توزيع المعلومات على نحو شبكي، تقانة تشكل البنية التحتية الأساس التي تتوسط عدداً متزايداً من الممارسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . **أما الخاصية الثانية** والأكثر غرابة، إذا صح التعبير، في المجتمعات الشبكية فهي إعادة إنتاج الشبكة ومأسستها في كل مكان من المجتمعات الشبكية (وبينها)، باعتبارها الشكل الأساسي للتنظيمات والعلاقات الإنسانية، عبر نطاق واسع من الهيئات والجمعيات الأهلية والسياسية والاقتصادية.

1. **الشبكات:** تتألّف الشبكات من ثلاثة عناصر رئيسة :العُقد والروابط والتدفقات.

والعقْدة هي نقطة محدّدة موصولة بنقطة أخرى على الأقل، مع أنّها، كثيرًا ما تكون نقطة ربط بين نقطتين أخريين أو أكثر. **أما الرابط** فيصل عقدة بأخرى. **والدّفْق** هو ما يمرّ بين العقد ومن خلالها على طول الروابط.

ومثال ذلك أن نعدّ مجموعة أصدقاء شبكةً، يمثّل فيها كلّ صديق عقدة موصولة بصديق آخر على الأقل، لكنّها موصولة عادةً بآخرين كثر هم كذلك مترابطون على نحو مستقل أو عبر طرف آخر. والاتصال المنتظم بين هؤلاء الأصدقاء، إمّا بالكلام وإمّا عبر نشاط آخر، وسواء

أكان مباشرًا أم بوساطة تقانة ما، هو الرابط الذي يصل بينهم، وما يمرّ بينهم من ثرثرة وصداقة حميمة وتأييد وحبّ وعوْن هو الدّفْق.

يقترن بكلّ عنصر من هذه العناصر عدد من المتغيرات التي تحدّد، مجتمعةً، ميزة أي شبكة بعيْنها. **وتكون العقد (كالأصدقاء مثلًا والحواسيب والشركات)** قوية أو ضعيفة، نشطة أو ساكنة، ثابتة أو متحوّلة، دائمة أو وقتية، شبكة مصادر أو شبكة متلقّين لشتّى أنواع التدفقات.

ويمكن أن تكون الروابط (كالمراسلة والأسلاك المعدنية والعقود) قوية أو هشّة، خاصة أو عامة، مفردة أو متعددة، فريدة أو فائضة، ضئيلة أو مكثّفة، متوازية أو متداخلة.

أمّا التدفقات (مثل الثرثرة والبيانات والمال) فتكون غزيرة أو متدنية، مطّردة أو متقطّعة، أحادية الجانب أو متبادلة، أحادية الاتجاه أو متعدّدة الاتجاهات، متوازنة أو مخْتلّة التوازن، ذات معنى أو لا معنى لها.

وفْقًا لهذه الميزات المتغيرة وغيرها التي تحملها العناصر المكوّنة للشبكة، يكون للشبكة عدد من الخاصيات؛

- إذْ يمكن لها أن تكون مركزية أو لامركزية (أي متعدّدة المراكز) أو موزّعة (أي لا مركز لها)
- تراتبية أو أفقية، محدودة أو لا حدّ لها، متناهية (لها حدود ثابتة لعدد العقد والروابط) أو متكاثرة (لا حدود لعدد العقد والروابط).
- سهلة المنال أو يتعذّر الحصول عليها، شاملة أو حصرية، مركّزة (حيث يتصل عدد قليل من العقد روابط كثيفة وقوية) أو موسّعة (أي إن كثيرًا من العقد موصول بروابط ضئيلة وهشّة)
- تفاعلية (تسهّل مسار التدفقات المتبادلة والمتعدّدة الاتجاهات) أو غير تفاعلية (لا تمكّن إلّا من التدفقات الأحادية الاتجاه).

تشير أطروحة المجتمع الشبكي إلى أن عددًا متزايدًا من الممارسات والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المعاصرة ينتظم حول الشكل الشبكي، حيث التدفقات في ما بين العقد الموصولة بالروابط، مع أن الترتيب الدقيق لهذه الشبكات وخصائصها يتغير بحسب كيفية دمجها هذه العناصر الثلاثة الأساسية المتغيرة .وتعتمد عمليات الدمج هذه، بشكل كبير، على الأوضاع المادية والخطابية) أي على السياقات التاريخية (التي توجد فيها هذه الشبكات .صحيح أن شكل الشبكة يقدّم للجمعيات والمؤسّسات الإنسانية إمكانات تنظيمية جديدة، إلّا أن بعضها يمكن أن يقف في مواجهة مع الشروط ذاتها التي انبثقت منها هذه الشبكات.

2. خصائص المجتمع الشبكي:

وفقًا لكاستلز "يتكوّن المجتمع الشبكي من شبكات إنتاج وقوة وتجربة، من شأنها أن تنشئ ثقافة واقعية افتراضية من التدفقات العالمية التي تتعالى على الزمان والمكان". والمجتمع الشبكي – المجتمع الذي يحلّ فيه شكل التنظيم الشبكي محلّ أشكال أخرى، عبر مقولات السياسة والاقتصاد والثقافة.

كما أن مفهوم الشبكة يشكل المنطلق الأساسي لنظرية كاستلز عن المجتمع الشبكي التي تتمحور أطروحتها حول أن التطور الاقتصادي والاجتماعي والبُعد الوظيفي لشبكات التواصل الاجتماعي سيؤدي إلى النتائج التالية:

- ✓ إحداث تغييرات تنظيمية (حيث ستصبح السيطرة والهيمنة للمؤسسات الشبكية).
- ✓ إحداث تغييرات في بنى السوق (بفضل العولمة وسيطرة الرأس مالية).
- ✓ إحداث تغييرات في طبيعة القوى العاملة وفي بنية سوق العمل على مستوى العالم.

وقد اهتم دارن بارن في كتابه المجتمع الشبكي بكل من:

- **التقانة الشبكية:** حيث يرى أن المجتمع الشبكي مجتمعٌ تقني، وهو بهذا المعنى امتداد من أهم المسارات التاريخية للمجتمعات الغربية الحديثة، وليس افتراقًا عنه.

انبثقت فكرة "المجتمع الشبكي" من هذا المشروع، وترعرعت في ظل أحد منتجاته المخصوصة والملموسة: الحاسوب الرقمي الشبكي. لذلك، فإن فهم كنه المجتمع الشبكي يقتضي بالضرورة التفكر قليلًا في طبيعة العلاقة بين التشكيلة الاجتماعية والتقانة عمومًا، فضلًا عن النظر في أهم سمات هذه التقانة خصوصًا.

وقد خصص دارني بارن الفصل الثاني من كتابه "المجتمع الشبكي" للتطرّق إلى هذه النقاط بالذات، حيث انطلق في مناقشة مختلف نظريات التقانة وختم بعرض سمات التقانة الشبكية المعاصرة التي ظهرت في السياق الراهن، باعتبارها الأهم بين الآثار الاجتماعية للتقانة والفرص التي تتيحها.

- **الاقتصاد الشبكي:** يقوم على اعتقاد سائد بأن المجتمع الشبكي يبقى نوعاً من الرأسمالية، وفي هذا السياق، يُعدّ تطور المجتمع الشبكي نقطة تواصل ضرورية لا قطيعة رئيسة في المسار الاقتصادي للمجتمع الغربي الحديث.
- **السياسات الشبكية:** تساهم التقانة التي تقوم بدور الوسيط في عملية الاتصال مساهمة مهمة في الإمكانات والاحتمالات التي تنطوي عليها السياسة في أي سياق من السياقات.

وينعت كاستلز السياسة الجديدة بـ"السياسة المعلوماتية"، ويربطها مباشرة بتقانات شبكات الاتصال، قائلًا: أهم ما يمكن ملاحظته هو أن وسائل الإعلام الإلكترونية (ولا يقتصر ذلك على التلفزيون والمذياع، بل يشمل أيضًا أشكال الاتصال كلها، مثل الجرائد والإنترنت)، أصبحت فضاء السياسة المفضَّل.

ولا يعني ذلك أنه يمكن أن تُختزل السياسة كلّها في الصور والأصوات أو التلاعب الرمزي، لكن من دونها لا وجود لفرصة للفوز بالسلطة أو ممارستها... وبسبب الآثار المتداخلة للأنظمة السياسية التقليدية، والتغلغل المتفاقم لوسائل الإعلام الجديدة، فإن ما يتعلق بالحياة السياسية كلها من معلومات وجوانب اتصالية، يصبح أسيرًا لوسائل الإعلام. أمّا ما هو خارجها فيُعَدّ هامشًا سياسيًا لا غير.

- **الهوية الشبكية:** إن الهوية مكوّن أساس من مكوّنات الذاتية الإنسانية، ومن مكوّنات تجربتنا باعتبارنا أطرافًا فاعلين وواعين في العالم. لذلك، ليس مستغربًا أن تتضمن المقاربات التي عُنِيت بالحياة في المجتمع الشبكي أقوالًا عن إعادة توجّه الخبرة الإنسانية في شأن الهوية مقترنةً بالتغيرات الحاصلة في النظام التقاني والاقتصادي والسياسي البشري.

حددت نظرية كاستلز في شأن المجتمع الشبكي خمس خصائص نهائية للوضع المعاصر، ونجم كل منها عن انتشار شبكات المعلومات وتقانات الاتصال:

1) تحول الاقتصاد الرأسمالي من اقتصاد قائم على الصناعة إلى اقتصاد قائم على المعلومات.
2) تنظيم النشاط الاقتصادي الرأسمالي على الصعيد العالمي وفق الأنموذج الشبكي.
3) إعادة توجيه تنظيم النشاط البشري زمانيًا ومكانيًا وفق التقانات التي تتيح التواصل الآني عبر مسافات شاسعة.
4) توزيع السلطة على أساس القدرة على الوصول إلى الشبكات والسيطرة على التدفقات.
5) التوتر بين الهوية البشرية المرتبطة بالمكان، والشبكات التي تتخطّى الحواجز المكانية.

أصبح "المجتمع الشبكي" بوصفه واقعاً مزعوماً، المعيار الذي يُحدد بوساطته ما هو طبيعي، ومرغوب فيه، ومعياراً لتطلّعاتنا المعقولة.